الخصائص الأسلوبية للرافعي في وحي القلم

بقلم : د . مكارم الديري*
مصر

ينتهي الرافعي إلى الاتجاه البياني المحافظ في الأدب، والذي اعتمد على استلهام النماذج الجيدة التي خلفتها عصور الازدهار الأدبي وجعل هذه النماذج قلبا للتعبير، وكان أساس هذا الاتجاه (اعتماد الفصحى في التعبير، ورفض العامية، وضرورة المحافظة على قوانين اللغة ومميزاتها الخاصة، ورفض التقليد والجمود والتكلف والتعقيد، وتطوير القيم التعبيرية المختلفة ..)[1].

وكان أصحاب هذه المدرسة يعتقدون كغيرهم من أدباء هذه المرحلة أنهم أصحاب حضارة عريقة، وأن الحضارة الغربية فرضت على المجتمع في صورة غزوٍ استعماري وكان أمراً طبيعيا أن ترفض فكرة الذوبان في هذه الحضارة محافظة على الهوية العربية والإسلامية . وتناولت موضوعاتهم مواجهة الدعوة إلى العامية والتصدي لعوامل التغريب المختلفة والدفاع عن اللغة العربية والدين الإسلامي والتراث الثقافي ومن أهم أعلام هذه المدرسة مصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وعبدالعزيز البشري.

* أستاذ مساعد ، قسم الأدب والبلاغة ، كلية دار العلوم ، جامعة الأزهر، القاهرة

والرافعي من الذين نشؤوا في بيئة إسلامية خالصة تحفل بالدين وتقدس القرآن وتحفظه مما كان له أثر واضح في تشكيل فكره وتقويم أسلوبه وأصبح لديه بفضل حفظه للقرآن الكريم والحديث الشريف قدرة تعبيرية جيدة تبدو في دراسته لنظم القرآن الكريم بجانب الحديث الشريف بالإضافة إلى أنه خصص جانبا كبيرا من كتابه «تاريخ آداب العرب» لدراسة أساليب الحديث الشريف وبلاغته . بالإضافة إلى مقالاته في وحي القلم وخاصة مقاله «السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية» .

مصطفى لطفي المنفلوطي

وأهم هذه الخصائص :

١ - المعجم اللغوي:

يضم المعجم اللغوي للرافعي حصيلة متنوعة من الألفاظ الجزلة التي تتميز بسلامة الجرس وجمال الإيقاع وقوة الإيحاء والتنوع في استخدام الدلالات المختلفة للألفاظ، وهي حصيلة لا بأس بها تطلعنا على ثقافة لغوية واسعة ومقدرة فائقة على استخدامها، كما يضم معجمه اللغوي أيضا بعض الألفاظ الشعبية التي التقطها من العامة وجاءت على لسان أولاد البلد في مقالاته . والكاتب في تناوله لألفاظ اللغة العربية أكثر حرصا على استخدامها استخداما لغويا سليما وصياغتها صياغة أدبية رفيعة متحديا بها دعاة العامية في اللغة والأدب، وقد جاءت ألفاظه وتعبيراته موحية بدلالتها المعنوية والجمالية فمثلا مقالته «الإشراق الإلهي» [٣]، تضم العديد من الألفاظ الموحية المعبرة عن أثر الدين في حياة البشر كلفظ «الإشراق» الحركة والنشاط والتحول بفضل أشعة الشمس . وتضم المقالة أيضا ألفاظا موحية بالبعث والتحول والتغيير وهي قريبة من لفظ الإشراق مثل الشمس تفجر - ينبوع - التحول - الترقي - السمو .

وفي مقالة «حقيقة المسلم» [٣]، يوحي لفظ «أفرغ» بالتحول والانصهار للعنصر الكريم وإفراغه جميعا في النفس البشرية للتحول به نحو الأفضل .

ويتحول الكاتب بدلالات الألفاظ الموحية بالكآبة كألفاظ «السواد» و«التراب» إلى معنى آخر يوحي بالتفاؤل والحياة كما في قوله عن رسول الله ﷺ «فالسواد الذي تراه في فقره ﷺ هو السواد الحي سواد الليل حول الروح النجمية الساطعة، والتراب : تراب الزرع تحت النضرة والخضرة»[٤].

وهو حين يعبر عن الروح الشاعرة يمنحها رشاقة الألفاظ وانطلاقها فهي «طفل ملائكي فرح بالطبيعة يرى الكون في سمائه وأرضه انسجاما واحدا جمالا وسحرا وفتنة» .

وحين يعبر عن الحقيقة العلمية يعبر عنها بالألفاظ الوعرة المقيدة بألفاظ مثل: الخف والحافر، وأيضا قوله :«فمدى العقل قطعة من الحجر أو عظمة من حيوان أو نسيجة من نبات أو فلذة من معدن»[٥].

وتتراشق ألفاظ الرافعي معبرة عن معاني الفرح أو الحزن وهو يكاد يستوفي لكل معنى من هذه المعاني ما يناسبها من ألفاظ .

ففرحة العيد تبدو في مرح الأطفال وانطلاقهم فيوحي للتعبير عنها بالوجوه النضرة والعيون الحالمة والأجسام الغضة والفجر المشرق على وجوههم [٦] .

وهناك من الألفاظ الموحية بميلاد الجمال في الربيع :فالرياض منورة بأزهارها والطيور مغردة بألحانها والأشجار مصفقة بأغصانها .... وهذه المظاهر جميعا تبدو في وجوه الأطفال في العيد [٧] .

أما سطوره عن «وحي القبور» فتعبر عن أحاسيس نفس حزينة «فالعيون تأتي بدموعها» ،

«والنفوس تمشي بأحزانها»، «القلوب تجيء على بقاياها» وحديث من الكاتب عن الحياة الدنيا والآخرة فيه معنى الحكمة والاتعاظ [٨] .

وسطور الرافعي تتخللها العبارات الموحية بالحكمة وهي كثيرة في كتابه، وتتسم بالعمق ونفاذ البصيرة والاتجاه نحو الفلسفة المستمدة من نواميس الطبيعة وواقع الأشياء . وهو يسعى بها دائما نحو المثالية المنشودة، فهو يؤمن برسالة الأديب التهذيبية والتربوية نحو سمو المشاعر ورقيها ومن هذه العبارات الموحية :الثبات وهو : «قانون ضبط القوة وتصريفها على مقتضى الحكمة»[٩] .

عبدالعزيز البشري

والإنسان فرد اجتماعي :«الفرد مقيد في ذات نفسه بمجموع هو للمجموع الكلي، وليس له وحده» [١٠] .

وصغائر الحياة :«أحاطت بمجد الحياة لتثبت الصغائر أنها الصغائر وليثبت المجد أنه المجد»[١١] .

«وحيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل»[١٢] .

والإيمان الصحيح :«هو بشاشة الروح وإعطاء الله الرضى من القلب ثقة بوعده ورجاء لما عنده»[١٣] .

وكما نفذ الرافعي إلى جوانب الألفاظ واخترق مدلولها المعجمي إلى إيحاءات ودلالات متنوعة نراه أيضا كلفا بتقليب اللفظ على وجوه مختلفة واستعمال التضاد، والاشتقاق اللغوي الطريف .

ومن أمثلة ذلك قوله :«ذهبت أزور أمواتي الأعزاء وأتصل منهم بأطراف نفسي لأحيا معهم الموت ساعة أعرض فيها أمر الدنيا على الآخرة فأنسى وأذكر، ثم أنظر وأعتبر، ثم أتعرف وأتوسم، ثم أستبطن مما في بطن الأرض وأستظهر مما على ظهرها»[١٤] .

وقوله عن رسول الله ﷺ: «فليس له إلا قوة أمر نافذ لا يتخلف، وأن له مع ذلك نسقا هادئا هدوء اليقين مبينا بيان الحكمة خالصا خلوص السر واقعا من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها» [١٥].

ومن الاشتقاق عنده أيضا قوله : تُحتقب في حقيبته، أو تُصندق في صندوق الأسفار [١٦] .

ويأتي الرافعي أحيانا ببعض الأسماء الشائعة على لسان العامة في قصصه وموضوعاته فيسمي أولاد البلد مثلا في موضوعه عن «الطفولتان» باسم بعطيطي وبقلظ [١٧] .

ويضم أيضا إلى معجمه بعض ما ورد على لسان العامة في موضوعه «السطر الأخير من القصة» ألفاظ :أبويا، وما رضيتش، وعاوز، وليه ما طرتش [١٨] . ولكن استخدامه لهذا النوع من الألفاظ كان نادرا . وأحيانا يرتقي باللفظ الفصيح إلى درجة الإغراب والصعوبة ويستخدم الأوزان الثقيلة لكلماته كقوله :استوفزت [١٩] وخبيصا والبزازين [٢٠] .

ويتعامل مع بعض الكلمات الأجنبية :كالسيما والتلفون ويأتي ببعضها على سبيل السخرية من المتشدقين بها كقولهم :سكالنس أو الفلير أو النيرفز[٢١].

ويقوم بتعريب بعض الألفاظ الأجنبية على طريقته الخاصة كقوله عن السيجارة «الدخينة» والمايوه «التبان» في قوله :وطاف به الأسواق عاريا في تبان من الشعر وقد ذكره الجاحظ بسروال قصير يلبسه الملاحون [٢٢] . وأطلق أيضا على الروب «المطرف» [٢٣] .

ومعجمه اللغوي في مجمله يعتمد على اللفظ الجزل والصياغة المحكمة وهو من الذين يملكون ناصية اللغة الفصحى فينتقون من الحديث أطيبه ومن التعبير أسماه.

٢ - التنوع الأسلوبي :

يتميز أسلوب الرافعي بالخصوبة والتنوع معتمدا على أسس ثرية من الأصول التراثية

والبلاغية السليمة، وثقافته اللغوية والأدبية شاملة مغترفة من ينابيع ثرية في محاولته الوصول بها إلى أداء بنائي متكامل متحديا بهذا الأسلوب دعاة العامية مبينا لهم جمال اللغة وقوتها ومرونتها وسعة اشتقاقاتها، والكتابة بها في شتى الموضوعات الثقافية تراثية كانت أم عصرية، واعية بعيدة عن كل ما يمس الذات القومية أو يمس الهوية العربية السليمة .

وأهم ما يميز أسلوب الرافعي هو اتجاهه نحو «التوليد» مما جعل القدرة على التعبير عن الفكرة الواحدة بمعان وأساليب متعددة وتبدو هذه القدرة في استخدام مفردات اللغة من اشتقاقاتها وتضادات ومقابلات معنوية ولفظية وإيحاءات مجازية ويأتي ذلك في معظم مقالاته فمثلا في «وحي الهجرة» يقدم فكرته باستهلال رائع عن رؤيته لحقائق التاريخ بقوله :«إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود، صورت فيها النفس الإنسانية كيف اعتورت أغراضها، وكيف مدت في نسقها، وكيف تغلغلت في مسالكها، وما تأتي لها فجرت به مجراها وما دفعها فانحدرت منه إلى مقارها»[٢٤] .

فهو تتبع واستقصى واعتمد على مفردات اللغة المختلفة لتأدية فكرته في محاولة لتوليد معان جديدة، منها أن التاريخ فنان بارع في تصويره للنفس البشرية :كيف اعتورت أغراضها ... وكيف مدت في نسقها .. وكيف ...؟ فهو يأتي بوسائل تعبيرية مختلفة من الاستفهام والتعليل في سبيل تمهيده للموضوع .

ويحاول أيضا تقرير فكرته بالنفي والإثبات لتقديم صورة للجلد والثبات عند رسول الله ﷺ في

● حيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل.

الرافعي

قوله :«إنه دانب يطلب ثم لا يجد، يعرض ثم لا يقبل منه، يخفق ثم لا يعتريه اليأس ...»[٢٥] .

ويبدو أيضا اتجاهه نحو التوليد في قوله عن النوابغ :«وإذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابغ والخيال يظهر في تعبيرهم والحكمة تهبط إلى الدنيا في تفكيرهم والمثل الأعلى هم الداعون إليه والأشواق النفسية هم موقظوها ...» فهذا كله إنما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبرة...[٢٦] .

والتوليد يدفع الكاتب إلى التغلغل في دقائق المعاني وبواطن النفوس، ومنه ما يدفع به إلى معالجة قضاياه برؤية فلسفية ويبدو ذلك في قوله عن الشاعر :«والإنسان من يعيش في عمر واحد، ولكن الشاعر يبدو كأنه في أعمار كثيرة من عواطفه، وكأنما ينطوي على نفوس مختلفة يجمع الإنسانية من أطرافها» [٢٧] .

أما نظرته للإنسان فهي نظرة تدعو للمثالية والارتقاء :«فالإنسان ذات تعمل أعمالها فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمال الإنسان ذاتا يخلد هو فيها فهو من الخير خالد في الخير ومن الشر خالد في الشر فكأن الموت إن هو إلا ميلاد للروح من أعمالها تولد مرتين آتية وراجعة»[٢٨] .

وهذا الاتجاه الفلسفي للكاتب في معالجة موضوعاته قد يتخذ أحيانا شكلا غامضا معقدا كقوله عن الإرادة :«الإرادة شيء بين الروح والعقل فهي وجودان، ولهذا يكون بهذا الإنسان بين وجودين أيضا، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمنفصل عنها، إذ يكون في وجوده الأقوى وجود روحه وأكبر همه نجاحه في هذا الوجود»[٢٩].

والاتجاه بالأسلوب نحو الفلسفة جعله يميل نحو الغموض مما جعل بعض الدارسين يعيبونه حتى قال عنه د . طه حسين في كثير من التحامل:

في أنه يلد ولادة لا نتائج لها[٣٠] . واتهمه أيضا د.أحمد هيكل في أسلوبه بالصعوبة والغموض الذي يصل أحيانا إلى حد الإلغاز [٣١].

ويدفع أيضا اتجاه الرافعي نحو التوليد إلى توازن العبارات ليسودها نوع من الإيقاع والجرس الذي يمنح الأسلوب جمالا، ويأتي ذلك عن طريق التضاد والفواصل بين الفقرات وتقليب اللفظ على وجوه مختلفة . مثل قوله عن أسلوب الرسول ﷺ: «وأن له مع ذلك نسقا هادئا هدوء اليقين، مبينا بيان الحكمة، خالصا خلوص السر، واقعا من النفس المؤمنة موقع نعمة من شاكرها»[٣٢].

كما أن الكون في نظره ﷺ ﴿ **آية الحكمة لا آية الفن، ومنظر المستيقن لا منظر المتخيل، ومادة العبودية لله لا مادة التأله للإنسان** ﴾ [٣٣] .

وهذا الاتجاه في توازن العبارات والإيقاع عن طريق الفواصل كثير في كتابات الرافعي وسمة من سمات أسلوبه.

٣ - الصور الوصفية:

يتميز أسلوب الرافعي بالقدرة على الوصف فهو يتمتع ببصر عميق وإدراك واع ودقة ملاحظة في نقل انطباعاته وأحاسيسه عن الناس والأشياء، ويعكس مقاله عن «قرآن الفجر» قدرة نافذة على وصف تلك اللحظات الأسيرة لله سبحانه وتعالى في المسجد وسماع القرآن، ويفوح أريجها بطلٍّ عطر مصدره حب الله وطاعته، فينقل هذه الانطباعات بقلم أديب نافذ البصيرة فيقول :«وأقبل الناس ينتابون المسجد فانحدرنا من تلك العلية التي يسمونها الدكة وجلسنا ننتظر الصلاة، وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت لكل قنديل زبالة يرتعش النور فيها خافتا ضئيلا، يبص بصيصا كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه، فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسراره الجميلة»[٣٤] .

فالرافعي في وصف صورته السابقة يطبعها بمفهوم فلسفي رابطا بينها وبين ما هو معلوم للنفس من خفايا هذا العالم المتناهي في الغموض. وما هذه الشقوق المضيئة إلا تفسير ضعيف لبعض ما نعرفه من أسرار هذا العالم اللامنظور .

ومعاني الكاتب في الوصف موحية بالشاعرية فمنظر الضوء المشع من هذه القناديل «كمنظر النجوم يتم جماله في الليل بإلقائه الشعل في أطرافه العليا وإلباس الظلام زينته النورانية» والمسجد في وقت السحر «يشعر بالحياة مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام» وحين تتحلل خيوط الظلام بضوء النهار «يشعر بالفجر في ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعورا نديا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه لينتصر من يبس ويرق من غلظة»[٣٥] .

وهذه المشاعر الرقيقة هي انطباع عن جمال الطبيعة من خلال أحاسيس أديب مرهف صافي النفس غزير العاطفة بالإيمان الصادق . وهي أحاسيس تنساب في سهولة ولين كرقة كلماته ونفاذها إلى النفس .

ويتميز الرافعي أيضا بالقدرة على وصف الشخصيات وصفا دقيقا كقوله عن الجاحظ في مقاله «صعاليك الصحافة» :«رجل مربوع مشوه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين، تدوران في محجريهما دورة وحشية كأنما رعبته الحياة منذ كان جنينا في بطن أمه»[٣٦].

والكاتب في وصفه لعيني الجاحظ متأثر بوصف طرفة بن العبد لعيني ناقته وتصويرها بعيني البقرة الوحشية المذعورة من القناصة الذين أصابوا ولدها، ومن ثم فهم يطاردونها وذلك في قوله :

وعينان كالماويَّتين استكنَّتا
بكهفي حِجاجَيْ صخرة قَلْتِ مورِدِ
طحوران عُوّار القذى فتراهما
كمكحولتي مذعورة أم فرقدِ[٣٧] .

وفي وصفه للفتى المترف في مقال «الطفولتان» باللين والرقة في قوله :«عصمت بن فلان باشا طفل مترف، يكاد ينعصر لينا، وتراه يرف رفيفا مما نشأ في ظلال العز، لروحه من الرقة مثل الشجرة وهو بين لداته من الصبيان كالشوكة الخضراء في أملودها الريان لها منظر الشوكة على مجسة لينة ....» [٣٨] .

والقدرة على وصف الشخصيات عند الرافعي نجدها تتلون أحيانا بين السخرية كمقاله السابق وبين الجد كمقاله عن عروس تزف إلى قبرها«٣٩» .

ومن أساليبه عن المقلدين للغرب وملاحدة الفكر: «لم أنخدع قط في هؤلاء من فلاسفة أو دكاترة أو جبابرة . ولست أضع أمرهم إلا على حقه، فإني لأعرف أن الهر من قبيلة الأسد ولكن أسديته على الفأرية وحدها»[٤٠].

ويتهكم أيضا تهكما مرا على هؤلاء المغتربين في قوله :«ولكن طاغور شاعر فيلسوف، وهم أنفسهم من لصوص كتبه وآرائه، ويقعون منه موقع السفسطة الفارغة من البرهان القائم ،وإذا قيسوا إليه كانوا كالذباب تزعم أنفسها نسور المزابل، ولكنها لا تكابر في أن من الهزؤ بها قياسها بنسور الجو»[٤١] .

ويتحدث عن لسان شيطان طه حسين هازئا بأن طه حسين يرى أنه من الخير أن لا يعرف هذا الهندي «طاغور» العربية لأنه لو عرفها لما أرضته[٤٢] .

ويسخر أيضا من مدعي التجديد فهم «مزورون وجملة عملهم كوضع الزنجي الذرور الأبيض «البودرة» على وجهه ثم يذهب يدعي أنه خرج أبيض من أمه لا من العلبة»[٤٣].

وهذا الأسلوب الساخر يتخذه الرافعي دائما في هجومه على خصومه، وهو يتميز بالسخرية المرة واللهجة الشديدة التعنيف والتوبيخ، فهو لا يعرف القصد في التعبير عندما يحاول الانتصار للدين أو اللغة أو الحضارة الإسلامية فيكون مندفعا بعاطفة إسلامية جارفة لا يقف في سبيلها شيء، وهي تعد تحديا صارخا في وجه الاندفاع الأعمى نحو كل ما هو غربي في ذلك الوقت.

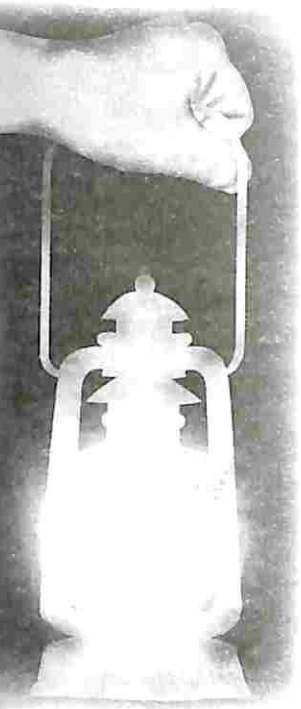

٤ - الاتجاه القصصي:

اتجه الرافعي في أسلوبه إلى الشكل القصصي ليذهب الرتابة والملل عن القارئ ويقدم الفكرة بطريق غير مباشر، وهو راو مليح ومحدث ظريف، تتوافر في حكاياته بعض عناصر القصة الناضجة وتفتقد بعض هذه العناصر، فتتوافر في حكاياته عنصر الحكاية وهي مجموعة الأحداث مرتبة ترتيبا زمنيا، ويتوافر في حكاياته صورة بنائها التي تعتمد على السرد، وتدور حول شخصية البطل، أو الفكرة التي تمثلها الأحداث . أما الشخصيات فيتخذها الرافعي من الشخصيات التراثية أو الحيوانات. وهو مصور بارع في رسم شخصيته بحيث يجسدها ناطقة عن طريق الحركات والسلوك أو الطباع والخلق .

أما الحبكة القصصية لدى الرافعي فهي واهية، وأحيانا تكون مفتعلة أو مفتقدة، وتكون الأحداث والأشخاص مجرد دور يؤدى من خلال السرد أو الحوار بلا أدنى غموض أو مشاكل أو مواقف في حاجة للتفسير . وهذا العنصر الأخير هو أهم عامل نجاح في القصة المكتملة العناصر. أما الفكرة عند الرافعي فهي متوافرة وهي هدف الرافعي الأول من حكايته وغالبا ما تعالج مشاكل اجتماعية أو ثقافية ... ويبدو هذا الاتجاه في العديد من كتاباته في وحي القلم فيتوافر عنصر الحكاية والشخصيات في جميع ما كتبه على شكل قصص مثل مقاله عن «سمو الحب»[٤٤] . وفيه التفات إلى التراث واستلهام قيمه ومبادئه ليجعلها نموذجا حيا في علاج بعض

المشاكل الاجتماعية فينقد بعض العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة من مفهوم إسلامي، وفي اختيار الزوج على أساس ديني كما في مقاله «قصة زواج وفلسفة المهر» [٤٥] .

فالبطل هو :المسيب بن رافع هو شخصية تراثية، والحوار كان بينه وبين العديد من مريديه . ومن خلال الحوار يصف الكاتب الشخصيات وحركاتها وطباعها وذلك في قوله :«قال مجاهد: هذا ليس بشيء في تنادر شيخنا وما يتفق له، أخبرني أن رجلا جاءه في مسألة فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته فقال الرجل : أيكما الشعبي؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال :هذه ...!.

قال المسيب :وضحكنا جميعا، وأخذ نظري الغلام فإذا هو ناكس حزنا وهما، وكأنه لا يستطيع النظر إلينا ...»[٤٦].

ومن خلال حكاياته يصل أحيانا إلى مرحلة العقدة أو المشكلة التي تعتمد عليها القصة كما في قوله :«ففتحت عيني وقلبي معا، ورمقت الطفل المسكين الذي لا يملك إلا يديه الضعيفتين، ونظرت إلى مجرى السكين من حلقه وإلى محزها في رقبته، ورأيته كأنما تفرق بصره من الفزع على كل جهة، ورأيته يتضرع لي بعينيه الباكيتين ألا أذبحه، ورأيته يتوسل بيديه الصغيرتين كأنه عرف مني أنه أمام قاتله، ثم خيل إليّ أنه يتلوى وينتفض ويصرخ من ألم الذبح تحت يد أبيه»[٤٧].

ولكن هذه الحبكة سريعا ما تضعف وتفقد تأثيرها لخوضه كثيرا في الوعظ المباشر والاستغراق في الوصف والتفسير والتحليل فيخرج بها من جنس القصة إلى الحكاية والملح والنوادر .

ومن حكاياته الطريفة حوار أجراه بين خروفين، يحكي فيه على لسان الخروف الكبير قصة من وحي خياله عن طريق تواتر الرواية بالسند على غرار رواية الحديث النبوي والأحداث التاريخية كقوله : «حدثتني أمي عن أبيها عن أبيه قالت :إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفداء الذي فدى الله به إسماعيل، وكان كبشا أبيض أقرن أعين اسمه حرير»[٤٨].

وللرافعي قدرة فائقة على وصف حركة شخصياته بدقة والتعبير عنها كما في قوله :«فتقلقل الضرير في مجلسه، وتنحنح، وهمهم أصواتا بينه وبين نفسه».

وقوله :«فأسفر وجه أبي معاوية، وسري عنه، واهتز عطفاه، وأقبل عليهم بعفو القادر، وأنشأ يحدثهم»[٤٩].

ومقالاته التي تأخذ شكل القصة عديدة مثل «بين خروفين، والطفولتان، وأحلام في الشارع، وأحلام في قصر، وسمو الحب، وقصة زواج، وفلسفة المهر، وذيل القصة، وفلسفة المال، وزوجة إمام، والانتحار» وذلك لأن دأبه في أغلب موضوعاته الأسلوب غير المباشر واستدعاءه لشخصيات تاريخية تخدم غرضه من الموضوع.

٥ - الخيال الأدبي:

يتلون الخيال الأدبي عند الرافعي مستمدا عناصره من الحكايات التراثية أو المظاهر الكونية أو النفس الإنسانية أو الواقع الاجتماعي، وصور الرافعي الخيالية لا تأتي بتلقائية، وإنما هي منتزعة من فكره انتزاعا، ولهذا فهي تتداخل أحيانا، وتتزاحم فيها التشبيهات والاستعارات وألوان البديع المختلفة لصياغة الصورة عنده ... والخيال لديه أيضا يرتبط ارتباطا وثيقا بخلاصة عقله وحضوره الذهني ولا غرو في هذا فهو أديب فكرة وهدف .

طاغور

ويجتمع لديه الحس الديني مع الوجداني في التعبير عن أثر القرآن الكريم وتشبيه قلبه بشجرة تستمد عناصر حياتها من نور القرآن[٥٠].

ونجد أن التشبيه هو أكثر الأنماط البلاغية استخداما في تشكيله للصورة:«فالقمر زاه زفاف كأنه اغتسل وخرج من البحر»، «والطيور نساء يتضاحكن، والفراش أطفال يتواثبون»، «وسماؤه كأنها رقعة أطبقت عليها غيوم السماء وأرضه بقعة اجتمعت فيها كل زلازل الأرض»[٥١] .

وقوله عن نفس رسول الله ﷺ:«كأنما خرجت هذه النفس من صيغة الدرة في محارتها أو تركيب الماس في منجمه ...»[٥٢].

ويصور الرافعي أيضا العطاء بالشجرة الطيبة تأخذ ترابا وتصنع حلاوة في قوله :«وما قط نبتت شجرة في مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب وتحصنها وتمنعها عن غيرها . ولو قد فعلت ذلك لكان هلاكها»[٥٣] .

ومن استعاراته الرائعة وصف رجل هم أن يقتل ولده في قوله :«وطمس الظلام هذه الرؤيا وتغيمت الدنيا فأيقنت أن آثامي قد أقبلت عليّ ظلمة بعد ظلمة، والتمع شيء أحمر فنظرت فإذا الدم يتخايل في عيني كأنه شعل تتلوى» . وقوله :«ثم طافت الحياة على عيني ففتحتها فإذا الأشياء تبدو لي وليس حقائق ولا معان»[٥٤].

ويصور الرافعي أيضا نفس رسول الله ﷺ بالشمس في قوله :«هي النفس الاجتماعية الكبرى من أين تدبرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تبسط وتضحى»[٥٥] . فاختار للشمس حالتها عند الضحى وهي أقوى إشعاعا وقدرة على التأثير عن وقت الغروب مثلا لأنها تكون منبسطة على جميع الأرجاء وذات تأثير متعادل في كل مكان تكون فيه.

ويصور الرسول ﷺ في ثباته وصلابته بالجبل الصلد في قوله :«تلك النفس العظيمة في مجموعها: صلابته بمقدار الحق الإنساني الثابت لا بمقدار المتغير الذي يكون عند سبب جبلا صلدا يشمخ، وعند سبب آخر ماء عذبا يجري»[٥٦] .

فوصفه لرسول الله ﷺ بالجبل الصلد للدلالة على الثبات والقوة، ووصف اللين والتردد بالماء العذب . وإن كنت أرى أن الكاتب غير موفق في تصويره للضعف والتردد بالماء العذب لأن في العذوبة حلاوة الطعم وطراوة الملمس وإحساسا محببا إلى النفس، وقد يكون اختيار الكاتب للفظ الماء العذب لإثبات أن الثبات على الحق يتبعه المعاناة، وهو مر على اللين والضعف وإن كان حلوا عذبا، وهناك ثمة معنى آخر في اختيار الماء العذب للضعف والتردد وهو أن الماء من طبيعته الانسياح في محاور ومجاري متعددة عكس الثبات والاستقامة على الطريق .

ويشبه الكاتب أيضا الغريزة بالرعونة والطيش كطفل أحمق لا ضابط له ولا التزام في تصرفه . أما النفس المؤمنة فيشبهها بالرجل المتحكم في هذا الأحمق[٥٧] .

ويصور الكاتب انتشار الإسلام وأثره في تحويل المجتمعات إلى الأفضل في قوله «إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء، طبيعة تعمل في طبيعة فليس يمضي غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمي بظلامها»[٥٨] .

فالإسلام كالعصارة الحية التي تستمد منها البشرية غذاءها ونموها، والبشرية شجرة في حاجة إلى هذا الغذاء . ثم صور الرافعي أيضا السياسات والقوانين الوضعية بطلاء مزيف تطلى به الشجرة الميتة الجرداء بلون زائف لا قيمة له ولا عمل، وشتان ما بين عمل حقيقي وآخر باطل .

وأخيرا نصل إلى نهاية رحلتنا الشائقة داخل فكر الرافعي في كتابه «وحي القلم» الذي يجمع بحق كل خصائصه الأدبية والعقلية، فالفكرة لديه سمو وارتقاء بالنفس البشرية، والنقد لديه نقد اجتماعي وأدبي يجمع بين التوجيه والتأثير . والحس الجمالي والفني هو سمة عامة من سمات الأسلوب عند الرافعي . فهو يعتمد في صياغته الأسلوبية على قوة الألفاظ وجزالتها، وتميزها

بسلامة الجرس وجمال الإيقاع، ويتنوع أسلوبه بما لديه من قدرة على التوليد بالتعبير الخصب عن موضوعاته والاتجاه نحو الأسلوب الفلسفي بالتغلغل في دقائق المعاني وبواطن النفوس، وهو مغرم أيضا بتوازن العبارات مما يمنح أسلوبه نوعا من الإيقاع المحبب إلى السمع مع ميله إلى استخدام التضاد والمقابلات اللفظية والمعنوية، والقدرة على استخدام مفردات اللغة واشتقاقاتها ذات الدلالات الموحية .

ويتميز أسلوب الرافعي أيضا في «وحي القلم» بالقدرة على الوصف بما لديه من بصيرة نافذة وقوة ملاحظة في نقله لمختلف الأحاسيس والانطباعات وهو من خلال وصفه يستخدم أحيانا الأسلوب الساخر لتعميق إحساسنا بالرفض لبعض سلبيات المجتمع الاجتماعية والثقافية .

أما الخيال عند الرافعي فهو منتزع من فكره الواعي انتزاعا، لأنه خلاصة عقله وحضوره الذهني، ولذلك تبدو فيه ألوان البديع المختلفة وتتزاحم التشبيهات والاستعارات، لأنه كان شديد الحرص على الصياغة الفنية في أسلوبه بجانب أنه أديب فكرة وهدف قبل أن يكون أديب إحساس وشعور .

والرافعي أديب بحق، طمع أن تكون له مكانة الريادة الأدبية في عصر تباينت فيه الاتجاهات، وازدادت بينه وبين معاصريه فيه الخصومات، ووفدت إليه مختلف الثقافات والاتجاهات، فوجدنا الرافعي في هذه الخضم الهائل من التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية من حراس العقيدة الحقيقيين الذين سعوا إلى المحافظة على الذات القومية، وكافحوا عن المبادئ والقيم الإسلامية طامحا إلى سمو التغيير ورقي الفكرة فكان من نوابغ الرواد في الأدب الإسلامي وفكره الأصيل. ■

الهوامش:

(١) مدرسة البيان في النثر والحديث، د.حلمي محمد القاعود، ١٠٢ - ١٠٣ .
(٢) وحي القلم، ٢ / ٥ ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان.
(٣) وحي القلم، ٢ / ٥٤ .
(٤) وحي القلم، ٢ / ٥٤ .
(٥) وحي القلم، ٢ / ٨٦ .
(٦) وحي القلم، ١ / ٣٠ .
(٧) وحي القلم، ١ / ٣٢-٣٣ .
(٨) وحي القلم، ٢ / ١٤١ .
(٩) وحي القلم، ٢ / ٧٧ .
(١٠) وحي القلم، ٢ / ٧٤ .
(١١) وحي القلم، / ٢٧ .
(١٢) وحي القلم، ٢ / ٦٢ .
(١٣) وحي القلم، / ٩٣ .
(١٤) وحي القلم، ٢ / ١٤١ .
(١٥) وحي القلم، ٣ / ٩ .
(١٦) وحي القلم، ٣ / ٢٠٨ .
(١٧) وحي القلم، ١ / ٧٦ .
(١٨) وحي القلم، ٣ / ٨٩ .
(١٩) وحي القلم، ٢ / ٣٢٢ .
(٢٠) وحي القلم، / ٣٢٠ .
(٢١) وحي القلم، ٢ / ٢٩٨ .
(٢٢) وحي القلم، ١ / ١٢٣ .
(٢٣) وحي القلم، ١ / ٢٢١ .
(٢٤) وحي القلم، ٢ / ١٨ .
(٢٥) وحي القلم، ٢ / ٢٠ .
(٢٦) وحي القلم، ٣ / ٢٢٣ .
(٢٧) وحي القلم، ٣ / ٢٣٦ .
(٢٨) وحي القلم، ٢ / ١٤٤ .
(٢٩) وحي القلم، ٢ / ١٠ .
(٣٠) حديث الأربعاء، ج ٣ / ١٢٢، م١٩٧٩، ط٩ .
(٣١) تطورات الأدب الحديث في مصر، ط٤ / ٣٨٦ .
(٣٢) وحي القلم، ٣ / ٩ .
(٣٣) وحي القلم، ٣ / ٢٣ .
(٣٤) وحي القلم، ٣ / ٢٨ .
(٣٥) وحي القلم، ٣ / ٢٨ .
(٣٦) وحي القلم، ٣ / ١٨٦ .
(٣٧) ديوان طرفة / ٢٧، دار صادر، بيروت، ١٩٦١، الماوية: المرأة، الحجاج: العظم المشرف على العينين، الفرقد :ولد البقرة الوحشية .
(٣٨) وحي القلم، ١ / ٧٠ .
(٣٩) وحي القلم، ٣ / ١٤٦ .
(٤٠) وحي القلم، ٣ / ٢٥٠ .
(٤١) وحي القلم، ٣ / ٢٤٧ .
(٤٢) وحي القلم، ٣ / ٢٥٤ .
(٤٣) وحي القلم، ٣ / ٢٥٥-٢٥٦ .
(٤٤) وحي القلم، ٢ / ١٠٣ .
(٤٥) وحي القلم، ٢ / ١١٣ .
(٤٦) من مقاله الانتحار، ٢ / ٨٧ .
(٤٧) من مقاله الانتحار، ٢ / ١١١ .
(٤٨) وحي القلم، ١ / ٦٢ .
(٤٩) وحي القلم، ١ / ١٣٤ .
(٥٠) وحي القلم، ١ / ٤٤ .
(٥١) وحي القلم، ١ / ١٧٩ .
(٥٢) وحي القلم، ٢ / ٦ .
(٥٣) وحي القلم، ١ / ٥٥ .
(٥٤) وحي القلم، ٣ / ١٢٠ .
(٥٥) وحي القلم، ٢ / ٦ .
(٥٦) وحي القلم، ٢ / ٧ .
(٥٧) وحي القلم، ٢ / ٧ .
(٥٨) وحي القلم، ١ / ٢٣ .